موقع الشيخ التركماني
https://www.turkmani.com

مقال: عن ابن حزم وطوق الحمامة وعنا

المصدر: مجلة أدب ونقد

بقلم: ماجد يوسف

رقم العدد: 88

تاريخ الإصدار: 1 ديسمبر 1992

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

https://www.turkmani.com

عن ابن حزم وطوق الحمامة وعنا!!

ماجد يوسف

* فى منتصف الستينيات، عندما قرأت كتاب «طوق الحمامة فى الألفة والألاف» للإمام الفقيه إبن حزم الأندلسى للمرة الأولى بتحقيق **حسن كامل الصيرفى**-

أى منذ مايزيد عن ربع القرن الآن- ربما لم يستوقفنى وقتها (بالدرجة الأولى) إلا الإعجاب بمفكر عربى أصيل، وقف من مادة بحثه هذه الوقفة الموضوعية الباكرة، وكاد بمنهجه التحليلى الإستقرائى يشارف أحدث ماوصلت إليه الدراسات النفسية، والنظريات السيكولوجية، ومدارس التحليل النفسى فى عصرنا.

وكان مما ضاعف من دهشتى وقتها.. إصرار الرجل- فيما هو يتصدى لموضوعه (الحب) على استبعاد هذا الركام المتطاول والمتواتر فى التراث العربى- شعره ونثره- حول الموضوع.. والذى يندر أن يخلو مصنف من مصنفات هذا التراث (فى اللغة والأدب والبلاغة والنقد) من أمثلة عديدة له يختلط فيها الحق بالباطل، والصدق بالكذب، والواقع بالخيال.

بل آثر الرجل- وعلى عكس طرائق التصنيف المتبعة فى عصره والعصور السالفة له- أن لايضمن كتابه إلا ماخبره بنفسه، ولمسه بتجربته، وأدركه بوعيه ومشاهداته، وأحاط به معايشا ومعاركا.. ومن ثم فقد خرج كتابه أقرب مايكون إلى الرؤية العلمية كما نعرفها اليوم.. إستقراء للواقع.. وتحليلا للوقائع.. ورصدا لتجارية الحية المباشرة، حتى أنه كان يستبعد بدون تردد فى مادة كتابه، كل مايمت الى عكس ذلك.. من أوهام تنسج، وحكايات تروى، وأساطير تشيع حول الحب والمحبين.. ومن ثم فقد أفلح فى أن يخرج لنا مؤلفا متماسكا فى موضوعه لحد كبير، وقيما فى بابه بدون شك، وفاتحا جديد فى البحث والتأليف يتقدم بخطى حثيثه نحو الانضباط العلمى والدقة المنهجية.

ومن الواضح أن هذا المنحى، كان شديد

الإتساق مع منهج إبن حزم بشكل عام فى مؤلفاته كلها، ذلك المنهج **(الظاهرى)** الذى لم يكن يعتد كبير اعتداد بالسير فى الطرق التى عبدها غيره، واختطها سواه، ومن هنا فقد كثر نقدة للمتقدمين فى حدة وصراحة، كما روى **أبن خلكان عن إبى العباس بن العريف قوله: فى التدليل على ذلك:«كان لسان إبن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفى شقيقين».**

فقد كان إبن حزم لفرط ذكائه وسعة أفقة يضيق بالتقليد وإهمال العقل وكان لايعجبه مايتورط فيه مجتمعه من الخرافة أو الجهالة فهو يمثل النزعة العقلية المتحررة فى وجه التسليم والتقليد.

ولعل هذا هو بعض مادعا الخليفة المنصور ثالث خلفاء الموحدين أن يقف أمام قبره خاشعا ليشهد للحق والتاريخ بقوله لمن حوله **(كل العلماء عيال على ابن حزم)**.. وكيف لا.. وهو صاحب أعمق دراسة نقدية فى علم الأديان، وأشمل عرض لتاريخ الفرق والمذاهب، وأدق كتابة للسيرة النبوية ولجمهرة أنساب العرب.. الخ.

وبرغم ذلك لم يقف فيلسوفنا الأندلسى العظيم موقفا عدائيا من علوم الأوائل.. بل لقد أقبل على منطق أرسطو، وأخذ بطرف من فلسفة اليونان، وعمل فى الوقت نفسه على الإفادة من هذا التراث اليونانى فى دراسته للفقة الإسلامى وشتى المسائل الكلامية، وكانت محاولته للتقريب بين الفلسفة والشريعة وراء عداوة أهل السنة له، واستهدافه للكثير من الحملات بسبب كتاباته فى المنطق وتشيعه للفلسفة بحجة أن الفلسفة وحدود المنطق منافية للشريعة، وأن كبت أرسطو بوجه خاص محتوية على الكفر ومناصرة للإلحاد!

وقد وصف لنا المستشرق الأسبانى بالنثيا -pa lencia قيمة ابن حزم الفكرية والأدبية فكتب يقول:«.. ففى قرطبة.. ظهر ابن حزم صاحب التواليف الكثيرة فى كل من، وهو من أفذاذ الأعلام المعدودين فى تاريخ الأندلس، وإن المتأمل فى مؤلفاته وماتحويه من مادة غزيرة، ليرى بوضوح أن ذلك الإنتاج الحافل لايمكن أن يصدر إلا عن حضارة بلغت من التقدم مبلغا عظيما، فذلك التحليل النفسى الدقيق الذى يتجلى فى كتابه (طوق الحمامة) وهذه الملاحظات الشخصية النافذة على الرجال وأخلاقهم التى يبديها فى كتاب «الخصال» ذلك كله يتحدث عن بيئة ذات حضارة عالية، فأما تاريخ الأديان الذى ألفه باسم **«الفصل فى الملل والنحل»** فقد سبق به أوروبا النصرانية ببضعة قرون- كما يقول بحق أستاذى ميجيل آسين بلاسيوس- لأن تاريخ الأديان لم يعرف فى الغرب إلا فى منتصف القرن التاسع عشر.. أما مذهبة الفقهى (الظاهرى) فلم يجد عند فقهاء عصره قبولا، بل تعقبوه فى عنف وضيقوا عليه الخناق، ولكن ابن حزم كان قد بعث فيه من الحيوية مامكن له من البقاء دهرا طويلا رغم إنكار الفقهاء له، وكانت لابن حزم مساجلات ومجالات حامية اضطر إلى خوضها مع الفقهاء دفاعا عن آرائه و نخص بالذكر مجالس الجدل التى دارت بينه وبين **(إبى الوليد)** الباجى الفقيه الأشعرى المعروف، فقد ظل صداها يتردد فى جوانب العالم الإسلامى دهرا طويلا، وهى تدل على مواهب ابن حزم ولسانه الحاد اللاذع».

فقد كان ابن حزم لايأبه بمن يعارضه عظيما أو غير عظيم، مبجلا أو غير مبجل.. كالأشعرى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم ، واشتهر عنه أنه لم يهتم برأى مالك أو أبى حنيفة فى المسائل الفقهية، ولا الأشعرى ونحوه فى العقيدة.. فكان من الطبيعى أن يتعرض بسبب أرائه تلك،

ومنهجه العقلى ذاك فى نقد السلف وأهل السنة للتشريد والنفى والمصادرة حتى أن المعتقد ابن عباد أحرق كتبه فى اشبيليه، وقال ابن حزم فى ذلك:

دعونى من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركابى
وينزل إن أنزل ، ويدفن فى قبرى

وهى لهجة آسية مفعمة بالحزن، فإن أشد مايحز فى النفس أن يقاوم الفكر الطليق هذه المقاومة الهمجية بعيدا عن الحجة والرأى.. وماأشبه الليلة بالبارحة!!.

على أى حال، كان هذا هو بعض مااستوقفنى- قبل غيره- عند تلك القراءة الأولى البعيدة للكتاب.

ولكننى، وأنا أعاود قراءته الآن، لأكتب هذا المقال، لم أستطع أن أمنع نفسى من دهشة جديدة فرضتها على وعيى فرضا، تلك الأحداث الظلامية الإرهابية التى تحاصر الفكر والمفكرين، والتى نحيا فى ظلها المعتم الآن، والتى لاتكف بشكل شبه يومى تقريبا عن المصادرة الوحشية والشرسة لحرية الفكر والإبداع، فى إيقاع متسارع أهوج يوشك أن يتطابق فى دلالاته مع تلك المقولة الذائعة **لجو بلز وزير دعاية هتلر:«حينما أسمع كلمة ثقافة أضع يدى على مسدسى»!** وليس أقوى فى التدليل على ذلك، من أن النصف الأول فى هذا القرن لم يشتمل إلا على مصادرة كتاب طه حسين **(فى الشعر الجاهلى)** وكتاب على عبد الرازق عن **(الإسلام وأصول الحكم)**.. بينما اشتملت السنوات الأخيرة فقط- بل الشهور الأخيرة- على جملة من المصادرات المتتابعة بلاهوادة.. فمن **(أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ.. و(ثأر الله) و(محمد رسول الحرية) لعبد الرحمن الشرقاوى.. مرورا بـ (ألف ليلة وليلة) و(الفتوحات المكية) لمحيى الدين بن عربى.. و(مقدمة فى فقة اللغة العربية) للويس عوض..إلى (آية جيم) لحسن طلب.. و(العراة) لابراهيم عيسى و(مخلوقات الأشواق الطائرة) لإدوار الخراط.. و(نكون أولانكون) لفرج فودة (بل لقد تمت تصفية الرجل بأكمله إذ يبدو أن مصادرة الفكر فحسب لم تعد تفى بالمطلوب!).**

ومن المؤكد أن هناك عشرات العناوين التى غابت عن الذهن فى هذه العجالة، فالمصادرة أصبحت سلوكا عاديا (ويوميا) .. نسكت عنه ونعتاده ونتعايش معه، ويكتسب فى كل لحظة مساحات جديدة بقدر صمتنا عنه وسكوتنا الأخرس على هذا الباطل الظلامى الجهول الزاحف علينا من كل صوب وحدب، وكما تقول أمثلتنا الشعبية الحكيمة **(يافرعون إيش فرعنك.. ملقتش حد يلمنى).**

المهم.. الحديث ذو شجون ، بل ذو مآس وكوارث فى سبيلها إلى أن تدهمنا جميعا بعجلاتها الحاقدة العمياء المغلقة لو لم ننتبه لنواجه بكل البسالة والقوة هذا السواد المحدق والمنذر بالخطر.. كل الخطر!

وهذا الحديث الذى سقته توا، ليس بعيدا فى حقيقة الأمر عن موضوعنا أقصد عن ابن حزم وكتابه البديع (طوق الحمامة)..فهذا العالم

الأندلسى الدينى، والفقية الإسلامى الجليل، والذى تقول لنا كتب المؤرخين عنه أنه كان نابغة فى الحديث وفى علم الكلام وفى التاريخ وفى أصول الفقه وفى الأدب وفى المنطق والفلسفة.. هذا المفكر الإسلامى الموسوعى المستنير..لم يقف بإزاء موضوع(كالحب).ومنذ ما يزيد عن الألف سنة-هذه الوقفة الإنغلاقية الضيقة التى يقفها (فقهاء الظلام)، الآن وبإزاء مسائل أهون من ذلك بكثير.. بل أدرك الرجل بشمولة وإتساع فكره ورحابة أفقه مانحلم بأن يدرك بعضه فقهاء عصرنا الأفاضل.. أدرك أن الإنسان ليس مجموعة من المعادلات المصمته والعناوين الخارجية الجامدة.. التى تتجاهل الإنسان فى كليته الإنسانية وجوهره الضام للروح والجسد، والعقل والعاطفة والأخلاق والغرائز، وتعامل مع هذا الإدراك الشمولى للإنسان تعاملا واقعيا شديد الرحابة والفهم.. محللا ودارسا ومستنبطا لنتائجة العلمية من هذا التحليل الواقعى، فلم يتجاهل الطبيعة البشرية لحساب المقولة الدينية، ولم يتعام عن دلالة الأفعال لكى تصح وتثبت الأقوال.

وبلغ من جرأته وأمانته فى هذا الشأن أن جعل من نفسه- وبالدرجة الأولى- موضوعا للبحث (والاعترافات) ، ولم يقم وزنا لما قد يؤدى إليه ذلك النهج المستنير من تأليب التقليديين، وعداوة الجامدين وشراسة هؤلاء الذين لايتورعون عن مصادرة الحياة بزخمها الموار لكى يظل فهمهم القاصر (للنص) على صحته وصلاحيته حتى وإن عارضته الحياة! فالرجل على سبيل المثال..

.. يحدثنا عن حبه الأول ببساطة إنسانية آسره، فقد كان كلفا بحب جارية له تسمى نعم خطفها الموت على حين فجأة.. ويقول فى ذلك:

«فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد من نيابى، ولاتفتر لى دمعه على جمود عينى وقلة إسعادها، وعلى ذلك فو الله ماسلوت حتى الآن ، ولو قيل فداء لفديتها بكل ماأملك من تالد وطارف وببعض أعضاء جسمى العزيزة على مسارعا طائعا، وماطاب لى عيش بعدها ولانسيت ذكرها ولا أنست سواها، ولقد عفى حبى لها على كل ماقبله وحرم ماكان بعده» وهو يحدثنا ببساطة عن غرامة بالشقراوات من النساء وتفضيله لهن على السمراوات منهن- والسبب فى ذلك أنه أحب في صباه جارية له شقراء الشعر فما استحسن من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه (يقصد سواد الشعر).. وفى هذا يقول: «وانى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت لاتواتينى نفسى على سواه ولاتحب غيره البتة».

وابن حزم- على الإجمال- يبلغ فى صراحته وصدقه مع نفسه حدا قل أن نجد نظيره بين سواد البشر العاديين الآن ناهيك عن مثقفيهم فما بالك بفقيه محدث؟!

وانظر إليه يصرح بأنه جرب اللذات على تصرفها، وأدرك الحظوظ على اختلافها فما وجدها تعدل الوصل ولاسيما بعد طول الإمتناع، وهو يصارح قارءه بأنه ماروى قط من ماء الوصل ولازاده الإظماً «.. ولقد بلغت من التمكن ممن أحب أبعد الغايات التى لايجد الإنسان وراءها مرقى فما وجدتنى إلا مستزيدا..»

وهو لايستنكف الإعتراف فى أكثر من موضع بتعرضه للهوى ومقاساة الآمة..

يحدثنا أنه ألف فى أيام صباه جارية كانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها، ويصفها ابن حزم فى عبارات مسهبة، وكانت تحسن العود، فجنح إليها وأحبها حبا مفرطا شديدا، فسعى عامين أو نحوهما أبلغ السعى لتجيبه بكلمة أو يسمع من فمها لفظة، فما

وصل من ذلك إلى شئ، فجمعه بها مصطنع فى داره لبعض مايصطنع له فى دور الرؤساء، فكان يقصد نحو الباب الذى هى فيه أنسا بقربها متعرضا للدنو منها، فتترك ذلك الباب وتقصد غيره فى لطف حتى رغب النساء اليها فى سماع غنائها فاخذت العود وسوته بخفر وخجل لاعهد له بمثله، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول:

إنى طربت إلى شمس إذا غربت
كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة فى خلق جاريه
كأن أعطافها طى الطوامير
ليست من الإنس إلا فى مناسبة
ولا من الجن الا فى التصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عبهرة
والريح عنبرة والكل من نور
كأنها حين تخطو فى مجاسدها
تخطو على البيض أو حد القوارير

«فلعمرى لكأن المضراب إنما يقع فى قلبى، ومانسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا، وهذا أكثر ماوصلت إليه من التمكن من رؤيتها أوسماع كلامها»

وهو لايبالى أن يحدثنا عن أيامه بقرطبه ولذاته فيها وشهور صباه لديها مع كواعب، إلى مثلهن صبا الحليم، وهو صاحب مذهب فى هذه الصراحة التى قد تكون صادمة للكثيرين (الآن)..لايعترف بالمراءاة والمداراة، ولا يدعى (التنسك) الكاذب إتساقا مع المفترض من صورة عامه للفقية وعالم الدين.. وهو يقول فى ذلك بوضوح:

«وبالجملة فانى لا أقول بالمراءاة ولا أنسك نسكا أعجميا». ولاينكر ماللبيئة الأندلسية من دور فى هذا المزاج السمح المنبسط وهذا الصدق اللافت.. برياضها وجنانها وجوها الجميل، وماشاع فيها على وقته من ليالى الأنس والطرب، وازدهار الموسيقى، وغناء الجوارى، وشيوع الأزجال والموشحات وتطورها، وتقدير الجمال والحسن كقيمة من قيم الحياة.

وربما لعبت مسألة أخرى دورا فى هذا التكوين المتميز لابن حزم.. فلقد ربى فى حجر النساء وتولين تنشئته، فكان له إليهن سبب متين وأورثه ذلك علما بأحوالهن ورغبة فى الوقوف على أسبابهن يقول ابن حزم:

«.. ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالايكاد يعمله غيرى لأنى ربيت فى حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولاجالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب، وهن علمننى القرآن ورووننى كثيرا من الأشعار ودربننى فى الخط، ولم يكن وكدى وإعمال ذهنى هذا أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جدا.. إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك وانا لا أنسى شيئا مما أراه منهن...فلم أترك باحثا عن أخبارهن كاشفا عن أسرارهن. وكن قد انسن منى بكتمان، فكن يطلعننى على غوامض أمورهن» وقد أورثته هذه النشأة فى (حجور النساء) وهذا الاقتراب الحميم منهن والدرس المتأنى لأحوالهن وطبائعهن، معرفة دقيقة وواقعية بالمرأة انعكست فى ثنايا كتابه، حتى أنه ليتحدث أحيانا فى أدق التفاصيل والتى لايلحظها إلا خبير متعمق كثير التأمل والتبصر بموضوعه.. ووصل فى ذلك إلى ملاحظات زكية وبالغة الدلالة وقابلة جدا للتعميم حتى وقتنا الراهن لأنها تمس المرأة فى جوهر تركيبها الأنثوى وخصائصها النسوية فمن استنتاجاته الثاقبة فى هذا الشأن والمستخلصة من حملة ملاحظاته ومراقباته.. ماأشار إليه من سعى المرأة إلى إكتساب إعجاب الرجل ورغبتها الدائمة

فى التأثير عليه.. ونص عبارته هنا:

«.. وشئ أصفه لك تراه عيانا، وهو أنى مارأيت قط إمرأة فى مكان تحس أن رجلا يراها أو يسمع حسها إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل وأتت بكلام زائد كانت عنه فى غبية مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك، ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تغلبها لائحا فيها ظاهرا عليها لاخفاء به، والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء.. وأما إظهار الزينة وترتيب المشى وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة فهذا أشهر من الشمس فى كل مكان.

وابن حزم فى هذا السياق، وعلى غير المألوف والشائع فى مواضعات عصره الإجتماعية عن العلاقة بين الرجل والمرأة.. يرفض تلك الصورة القديمة التى تصور المرأة طريدة يطاردها الرجل، ومطلوبة يطلبها الرجل ويسعى إليها.. ومن ثم يتحدد دورها فى الدلال والتمنع أو الرضا والقبول.. وهو يرى أن المرأة والرجل فى هذه المسألة يستويان.. كلاهما طالب للآخر وساع إليه.. وإن إختلفت وسائلهما ومنحاهما فيما يصطنعان من أساليب وطرائق لتحقيق هذا الهدف فقد كان السائد من قبل أن الرجل هو الذى يحتاج إلى قمع الشهوة وكف نوازع الهوى، وأن المرأة مرغوبة غير مبذولة، فاذا ابن حزم يرفض هذه النزعة ويضع المرأة مع الرجل فى هذا الحكم على قدم المساواة.

أما عن «طوق الحمامة».. فأبن حزم يحدد من البداية- كما ألمحنا- منهجه فى تأليف الكتاب، هذا المنهج الذى التزم فيه «الإقتصار على مارأيت أو صح عندى نبقل الثقاب، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، ومامذهبى أن أنضى مطية سواى، ولا أتحلى بحلى مستعار».

ثم يقسم رسالته على ثلاثين بابا.. فى ماهية الحب وعلاماته، ومن أحب فى النوم، ومن أحب بالوصف ومن أحب من نظرة واحدة،ومن لايحب إلا مع المطاولة ومن أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها، ثم باب التعريض بالقول، والإشارة بالعين، والمراسلة، والسفير، وطى السر، والإذاعة والطاعة، والمخالفة، والعاذل، والمساعدة من الإخوان، والرقيب، والواشى والوصل، والهجر، والوفاء، والغدر، والبين، والقنوع، والضنى، والسلو والموت، وقبح المعصية، والتعفف.

والكتاب كما يتضح فى هذا التقسيم الدقيق لأبوابه يناقش أصول الحب.. ماهيته ونشأته وعلاماته ومظاهرة وأنواعه ونماذجه، ثم يعرج على أحوال المحبين وعوارض حبهم. بالسلب والإيجاب- فيحدثنا عن الوصل والهجر والوفاء والغدر والبين والضنى والسلو والموت.. الخ.

وهو يتبع التسلسل المنطقى فى العرض، والترتيب المنهجى فى تناول الموضوع، بعكس مادرج عليه الكتاب العرب من إستطراد واسترسال وإطناب، ويقتصر فى رسالته على الحقائق الواقعية.

ولايخلو الكتاب- كما ذهب الدكتور **زكريا إبراهيم فى تحليله**- من تأثرات أفلاطونية فى مفهومة للحب.. فمثلا عند حديثة عن ماهية الحب يقول: «.. وقد اختلف الناس فى ماهيته، وقالوا وأطالوا، والذى أذهب إليه أنه إتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع»..

وقد يذكر هذا التعريف بحديث أفلاطون المشهور عن (الأيروس) فى محاورة (المآدبة)..

خصوصا وأن أبن حزم يستطرد بعد ذلك فيقول أن المحبة «إستحسان روحانى وإمتزاج نفسانى».

وكما قال أفلاطون فى قبل أن أيروس هو المحب لاالمحبوب، نجد ابن حزم أيضا يلحق الحب بالمحب، ويتكلم عن معانى الحب وأعراضه وظواهره وشتى آفاته من وجهة نظر المحب لا المحبوب.

إلا أننا قد نختلف مع الدكتور زكريا إبراهيم فى حقيقة هذا التأثر وأبعاده فالتشابة بين أفلاطون وابن حزم فى بعض التحليلات لعاطفة الحب، قد يكون ناتجا عن طبيعة المنهج الذى يستمد مادته من تحليل الواقعة ويستند إلى رصد الوقائع، ودراسة الطبيعة الإنسانية فى الحب، وأتصور أن هذا التحليل القائم على سبر أغوار النفس البشرية فى فاعليتها العاشقة لابد أن يؤدى الى نتائج متشابهة، لأننا فى النهاية بإزاء درس (للإنسان) من حيث هو.. من حيث جواهره العميقة، وإعتلاجاته الداخلية التى لايتمايز فيها البشر إلا فى القشور الخارجية والتفاصيل الشكلية وإلا كان علينا بنفس الدرجة أن نقر- مثلا- بتأثر ستندال بابن حزم- فى دراسته للحب بعد ذلك بقرون طويلة- وهى مسألة غير مقطوع بها أو مؤكدة.. برغم تشابه بعض تحليلات ستندال مع تحليلات ابن حزم فى نفس الموضوع، ولذلك فانا أميل إلى الإعتقاد بأن هذه التشابهات كلها ناتجة عن الطبيعة (البشرية) الواحدة للمبحوث وهو (الإنسان) هنا.. بعواطفه ونوازعه.. ومنطقة- ولامنطقه حتى- فى الحب والهوى.. حتى وإن اختلف دارسوه..من أفلاطون لابن حزم لستندال.

بل أن ابن حزم- على أصالة منهجه وجدة تناوله وشموله- ليس أول من تناول هذا الموضوع فى تراثنا العربى نفسه..فقد سبقه إلى ذلك **إخوان الصفا فى بعض رسائلهم، وابن المقفع فى (الأدب الكبير والأدب الصغير) والجاحظ فى الرسالة السابعة من مجموعة رسائلة فى العشق والنساء.**

إلا أن مايحسب لابن حزم- وهو مناط الأصالة فيه- يتمثل فى دقة منهجه وتسلسل أفكاره وترابط بحثه، وواقعية شواهده، مع رقة حسه وبعد عوصه،واتخاذه من نفسه وتجربته،أو تجربة معاصريه،مادة للبحث متبعا فى ذلك منهجى الإستبطان والإستقراء.. فجاءت رسالته حافلة بالملاحظات النفسية الدقيقة، والخبرات الحية المعاشة والأمثلة الصادقة الدالة، والنماذج البشرية المتنوعة بتجاربها العاشقة وهذا هو ماجعل دراسته دراسة فذة فى تاريخ الأدب العربى.

ليس من هدفنا فى هذا السياق، العرض التفصيلى (لطوق الحمامة) خصوصا وأن الدارسين والباحثين (الواردة أعمالهم فى نهاية المقال) لم يجعلوا ثمة مزيد لمستزيد- **وأنوه هنا بالدكتور الطاهر مكى فى كتابة الهام (دراسات عن ابن حزم وكتابة طوق الحمامة).**

ولكن حسبنا أن نورد بعض النماذج الدالة فى الكتاب عملها تفتح شهية القارئ المهتم للعودة إلى النص الكامل لهذا الكتاب الهام والممتع يقول ابن حزم فى محاولته لتعريف الحب:

«الحب- أعزك الله- أوله هزل وآخره جد، دقت معانية لجلالها عن أن توصف، فلاتدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر فى الديانة، ولا بمحظور فى الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل، وقد أحب من الخلفاء المهديين، والأئمة الراشدين الكثير». وابن حزم هنا، وكأنه يتحسب لمايتوقعه من ثورة التقليديين وغضب المحافظين لتعرض

فقيه عالم لمثل هذا الموضوع..فيحرص على إيراد الأمثلة المقنعة من تراث الخلفاء والراشدين الذين لم يستنكفوا الحب أو يستنكروه..

ويقول تأكيدا لهذا المعنى من قصيدة له فى الرد على مخالفية ومؤاخذيه المتوقعين:

متى جاء تحريم الهوى عن محمد
وهل منعه فى محكم الذكر تائب.

ويستشهد بحديث الرسول:

«الأرواح جنود مجنده... ماتعارف منها أئتلف، وماتناكر منها اختلف».

ويلتقى هذا الحديث مع تعريفه لماهية الحب - على «أنه إتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع». ويتابع قائلا:«وقد علمنا أن سر التماذج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال».

وهو يؤكد فى محاولته لإستكناه الحب والعثور على تعريف له على أنه «شئ فى ذات النفس».

.. وهو بهذا الفهم الرفيع للحب يؤكد ماله من معانى الديمومة والاستمرار بما لايفنيه إلا الموت:

إذا ماوجدنا الشئ علة نفسه
فذاك وجود ليس يفنى على الأبد

فحمية العشق من منظور ابن حزم لاعلة لها إلا الإتصال الأبدى للنفوس..فكل شئ عداها منقض.. ناقص، فوحده العشق الصحيح المتمكن من النفس هو الذى لافناء له إلا بالموت.. لأن العشق-فى جوهره المصفى- «استحسان روحانى وامتزاج نفسانى» ويتابع ابن حزم إقترابه الجرئ من إستكناه الحب بقوله:

«والحب- أعزك الله- داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ومقام مستلذ، وعلة مشتهاه، لايود سليمها البرء، ولايتمنى عليها الإفاقة، يزين للمرء مكان يأنف منه، ويسهل عليه ماكان يصعب عنده»

ثم ينتقل ليحدثنا عن علامات الحب.. كإدمان النظر للمحبوب، والإقبال عليه بالحديث، والإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه والتعمد للقعود بقربه والدنو منه، وإطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه والزهد فيها والرغبة عنها، والإستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته، والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه.. ومنها بهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة.. وطلوعه بغتة.. ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه... أو عند سماع اسمه فجأة.. ومنها أن يجود المرء ببذل كل ماكان يقدر عليه مما كان ممتنعا به قبل ذلك.. فكم بخيل جاد، وقطوب تطلق وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب، وجاهل تأدب، وفقير تجمل وذى سن تفتى، وناسك تفتك، ومصون تبذل... ومن علاماته وشواهده الظاهره لكل ذى بصر: الإنبساط الكثير الزائد، والتضايق فى المكان الواسع، والمجاذبة على الشئ يأخذه أحدهما، وكثرة الغمز الخفى، والميل بالإتكاء، والتعمد للمس اليد عند المحادثة، ولمس ماأمكن من الأعضاء الظاهرة، وشرب فضلة، ماأبقى المحبوب فى الإناء»

وابن حزم فى تحليله يصل إلى تفسير بعض ظواهر الحب وعلاماته التى تبدو لأول وهلة خادعة بالتنابذ و التباعد بين المحبين، بينما هى تشى بالعكس، وتدل على تمكن العشق منهما.

«..فنجد المحبين إذا تكافيا فى المحبة، وتأكدت بينهما تأكدا شديدا، أكثر بهما جدهما بغير معنى، وتضادهما فى القول تعمدا، وخروج بعضهما على بعض فى كل يسير من الأمور، وتتبع كل منهما لفظة تقع فى صاحبه وتأولها على غير معناها، كل هذه تجربة ليبدو مايعتقده كل واحد منهما فى صاحبه..»

«.. ومن أعلامه أنك تجد المحب يستعدى

سماع إسم من يحب، ويستلذ الكلام فى أخباره، ويجعلها هجيراه، ولايرتاح لشئ إرتياحه لها، ولاينهنه عن ذلك تخوف أن يفطن السامع ، ويفهم الحاضر، وحبك الشئ يعمى ويصمم، فلو أمكن ألا يكون حديث فى مكان يكون فيه إلا ذكر من يحبه لما تعداه..

ويعرض للصادق المودة أن يبتدئ فى الطعام، وهو له مشته، فماهو إلا وقت ماتهتاج له من ذكر من يحب، صار الطعام غصة فى الحلق وشجى فى المرئ، وهكذا فى الحديث، فأنه بضاتحكه مبتهجا فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب، فتستبين الحوالة فى المنطقة، والتقصير فى حديثه، وآية ذلك الوجوم والإطراق، وشدة الإنغلاق، فبينما هو طلق الوجه، خفيف الحركات، صار منطبقا متثاقلا، حائر النفس، جامد الحركة، يبرم من الكلمة، ويضجر من السؤال..

ومن علاماته حب الوحدة والأنس بالإنفراد ونحول الجسم دون حد يكون فيه ، ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشى، دليل لايكذب ومخبر لايخون عن كلمة فى النفس كامنة.. والسهر من أعراض المحبين..

خلوت بها والراح ثالثه لنا
وجنح ظلام الليل قد مد وانهلج
فتاة عدمت العيش إلا بقربها
فهل فى ابتغاء العيش ويحك من حرج
كأنى وهى والكأس والخمر والدجى
ثرى وحيا والدر والتبر والسبج

ويعرض فى الحب سوء الظن، وإتهام كل كلمة من أحدهما، وتوجيهها إلى غير وجهها، فهذا أصل العتاب بين المحبين، وانى لأعلم من كان أحسن الناس ظنا، وأوسعهم نفسا، وأكثرهم صبرا، وأشدهم احتمالا ، وأرحبهم صدرا، ثم لايحتمل ممن يحب شيئا..

ومن آياته- يقصد الحب- مراعاة المحب لمحبوبة، وحفظه لكل مايقع منه، وبحثه عن أخباره حتى لاتسقط عنه دقيقة ولاجليلة، وتتبعه لحركاته، ولعمرى قد ترى البليد يصير فى هذه الحالة ذكيا والغافل فطنا.. الخ...

وابن حزم- فى إطار منهجه الذى اختطه لبحثه وارتضاه، لايلجأ فى عرض أمثلته وشواهده إلا الى خبرته ومعرفته المباشرة وتجاربه الشخصية أو تجارب من عاصر من المحبين والعاشقين الثقاة.. ولأن مقامات الهوى المختلفة تستدعى الشعر.. وهو الرافض لاستدعاء أشعار السابقين الدالة على مايورد من مواقف ويذكر من تجارب.. فهو يصطنع الأشعار اصطناعا لتتوائم مع مايورده من أحوال الحب وحالات الهوى غير مدرك فيما يبدو لتناقضة مع نفسه ومنهجه فى هذا الخصوص، وهى مسألة لم يلتفت لها أحد من الباحثين بالمرة ففى الوقت الذى كان اختياره ومنهجه يفرضان عليه أن تكون أشعاره ترجمة لتجاربه وبلورة لأحاسيس كابدها وعايشها.. إذ به يعتسف الشعر المصنوع والموضوع من محض تصوراته النظرية وتحليلاته النفسية.. فهو واقعى فى إيراد شواهده وملاحظاته.. وإفتراضى مفارق لأرض الواقع فيما هو يعتسف لهذه الوقائع مكافئها الشعرى ومعادلها الشعورى والفنى.. ومن ثم فقد خرجت أشعاره فى كتابه ذاك باردة.. عقلية.. مصنوعة.. لا أثر فيها لعاطفة صادقة.. أو حس موار مفعم بالمكابدة ومعجون بالمعاناة والاكتواء الشخصى المتولد من برجاء العشق.. ومن ثم فقد شكل هذا المنحى مأخذا أساسيا على

أداء ابن حزم.. وأوجد هوة واسعة بين صدق التجارب التى يعرض للحديث عنها.. وادعاء الشعر الذى يكتبه منتحلا لهذه التجارب ومدعيا لها! ولكن هذا المأخذ فى الحقيقة لاينال من القيمة الكلية لكتاب (طوق الحمامة).. وفرادته فى بابه.. وامتيازه فى موضوعه.. وجدته فى منهجه... وهو ماكان له أعمق الأثر بعد ذلك فى أدب الحب- شعره ونثره- فى أوروبا القروسطية.. بل وفى أوروبا الحديثة من بعد.. وهى مسائل فى حاجة ماسة الى الدرس المقارن... حتى لانترك الفرصة لهؤلاء البحاثة الأجانب (أسبان وغير أسبان) الذين إستكثروا فى أبحاثهم أن يكون ابن حزم فى حديثه ذاك عن الحب عربيا خالصا.. وحاولوا أن ينسبوا أصالته فى عرض الموضوع وتناوله إلى جذوره المسيحية (المدعاة) بدعوى أن (العربى) لايفكر فى الحب عادة هذا التفكير ،وأن تصور الحب عند العرب هو تصور شهوى حسى لايقيم لغير ذلك إعتبارا وقيمة، وفى النهاية.. لا أجد ما أختم به هذا الحديث الذى طال عن (طوق الحمامة) خيرا من كلمة الدكتور الطاهر مكى فى مقدمته للطبعة التى أصدرتها دار الهلال للكتاب: **«إن مايرتضيه ابن حزم الأديب العالم، الفقيه الظاهرى، ومايقبله ذوق المسلمين فى قرطبة الزاهرة، عاصمة الأندلس، أيام الخلافة ومابعدها، فى القرن العاشر الميلادى وماتلاه، ليس تدينا ولاورعا ولاتطورا ولا محافظة أن ترفضه قاهرة القرن العشرين، ورائدة النهضة فى العالمين العربى والاسلامى».**

مراجع عامة للدراسة

١- طوق الحمامة فى الألفة والألاف- للأمام الفقيه إبن حزم الأندلسى ضبط نصه وحرر حواشيه الدكتور الطاهر أحمد مكى. كتاب الهلال- العدد ٤٩٧- مايو ١٩٩٢

٢- إبن حزم الأندلسى- بقلم الدكتور زكريا إبراهيم- سلسلة أعلام العرب- العدد ٥٦- الدار المصرية للتأليف والترجمة- ١٩٦٦.

٣- دراسة الحب فى الأدب العربى- الدكتور مصطفى عبد الواحد- مكتبة الدراسات الأدبية- الجزء الثانى- دار المعارف بمصر- ١٩٧٢

٤- دراسات عن إبن حزم وكتابه «طوق الحمامة» - الدكتور الطاهر أحمد مكى دراسات أندلسيه- الناشر مكتبة وهبه- ١٩٧٧

٥- ظهر الإسلام - أحمد أمين- مكتبة النهضة المصرية- الجزء الثالث- ١٩٥٣

٦-طوق الحمامة لابن حزم-عرض يوسف الشارونى.. مجلة «المجلة»- العدد (١٠٢)- يونيو ١٩٦٥

٧- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- المقرى حققه الدكتور إحسان عباسدار صادر بيروت-١٩٦٨.

٨-تاريخ الفكر الأندلسى آنخل جنثالث بالنثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس- مكتبة النهضة العربية- القاهرة -١٩٥٥

٩- مشكلة الحب- تأليف الدكتور زكريا ابراهيم سلسلة «مشكلات فلسفية»- رقم (٥) - مكتبة مصر- ١٩٧٠